المخطوط العربي بين الماضي والحاضر...

أ/ عمرو رابحي

جامعة البويرة

الملخص:

هذه الدراسة تعنى بالحديث عن بداية الكتابة أو التدوين عند العرب وكيف تطورت عبر العصور المتلاحقة وما أنتجه العرب والمسلمون من معارف في شتى فنون المعرفة المختلفة وما خلفته الحضارة العربية من مذخور ثقافي متمثل في المخطوطات.

وتهدف إلى التعريف بما قام به المستشرقون من تناول لهذا التراث بالدراسة والتحقيق وما قام به بعض أبناء هذه الأمة من جهود في سبيل إحياء هذا التراث تحقيقا وطباعة ونشرا.

Résumé:

Cette étude patrimoine s'intéresse au début de l'écriture chez les Arabes et comment elle a évolué à travers les différentes époques et l'héritage de manuscrits dans diverses sciences et connaissances.

Elle vise également à faire connaître ce que les orientalistes ont fait à travers l'étude, l'enquête et l'impression de ce patrimoine et ce qui avait fait la première génération qui a suivi les orientalistes dans le renouveau de ce patrimoine à travers l'enquête, l'impression et la publication.

Abstract:

This heritage study is interested in the beginning of writing among Arabs and how it has evolved through different times and legacy of manuscripts in various sciences and knowledge.

It also aims to make known what the Orientalists have made through the study, the investigation and the printing of this heritage and what had made the first generation after the Orientalists in the revival of this heritage through investigation, printing and publishing.

*** *** ***

قبل الحديث عن معنى التحقيق يجدر بنا أولا أن نلقي ولو بنظرة سريعة على واقع التأليف والتدوين عند العرب قبل الإسلام، لأن المعروف عنهم أنهم كانوا في جاهليتهم لا يدونون لغلبة الشفوية عليهم وإن وجدت الكتابة فقليل -على رأي البعض- ولما جاء الإسلام وبدأ نزول القرآن الكريم لم يكن هناك في مكة إلا القليل ممن يحسنون الكتابة وإن قيل كان عددهم سبعة عشر فردا وفي المدينة أحد عشرة هؤلاء كتاب الوحي، وبقي الأمر هكذا إلا بعد أن عزم الخليفة عثمان كتابة المصحف الشريف في مصحف واحد دفعا لاختلاف المسلمين حول قراءته ومن هنا بدأ الاهتمام بالتدوين شيئا فشيئا وإن تأخر إلى نهاية القرن الهجري الأول أي: بعدما فكر عمر بن عبد العزيز في جمع أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، (ويتفق أغلب رواة المصادر على أنه قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس عن تدوين الحديث الشريف خلال حياته خشية اختلاطه بآيات القرآن الكريم)[1].

ومما شجع عليه أيضا أي: التدوين تمدن العرب واستقرارهم في الأمصار فضلا عن امتداد سلطان الخلافة واتساعها في كثير من الأقطار والبقاع التي دانت بالإسلام ومن هنا تم الاستقرار للعرب فشرعوا في تدوين تراثهم الشفهي معتمدين في هذا على الحافظة والرواية والرواة في مختلف الفنون، فنجد أهل اللغة قد عمدوا إلى جمع ألفاظها من أفواه الأعراب في البادية وقد (أثمرت حركة جمع اللغة مجموعة من الكتب والرسائل اللغوية التي اعتمدت عليها المعاجم)[2].

وهذا حسب الروايات لأن كل هذا كان في صدور الرواة ويندرج تحت هذا الأمر تدوين الحديث النبوي الشريف -كما سبق- وكذلك الأشعار والأنساب وأيام العرب والخطب وغيرها مما شاع في أيام العرب وبواديهم تلت بعد ذلك كتابة الوثائق والعقود والرسائل التي كانت تكتب في دواوين الولاة والخلفاء وغيرهم ممن كانوا على امتداد رقعة الخلافة والأمصار التي فُتحت ودخلها المسلمون إضافة إلى ما ذكر دخول الكثير من الأعاجم في الدين الجديد واتساع رقعته مما اضطر الكثير من الأمراء والخلفاء إلى ضرورة تدوين ما هنالك من رسائل ومكاتبات إدارية واستمر الحال هكذا إلى العصور التي تلت العصر الإسلامي الأول فكثر التأليف واتسعت دائرته فشملت علوم شتى لاسيما في العصر العباسي الأول الذي عرفت

فيه(حركة التأليف نهضة كبيرة منذ أواخر القرن الثاني الهجري بعد معرفة العرب صناعة الورق نقلا عن الصينيين في سمرقند منذ عام (94هـ/712م) في أثناء الفتوح الإسلامية[3].

وفي هذا الأثناء عرفت الكتابة أوج ازدهارها، والمتتبع لهذا العصر يجده يزخر بموروث ثقافي قل نظيره في العصور التي تلته نظرا للتشجيع الذي لقيه العلماء من الخلفاء والإغداء عليهم بالأموال وتكريمهم إياهم مما شجع أكثر على التأليف والتدوين في شتى مناحي العلوم وفي هذا الجو العلمي انفتحت الدولة العباسية على ثقافات الأمم الأخرى من فارسية وهندية ورومية ويونانية،فضلا عن بروز أدوات الكتابة منها الورق -كما أسلفنا القول- ذلك الذي كان عائقا بالنسبة للعرب الذين كانوا يكتبون على العظام والجريد أو السعف والحجارة الملساء ثم البردي، وبالإضافة إلى هذا ظهور حرفة النسخ، حيث كثر النساخ والوراقون وأصبحت حرفة رائجة لها رجالها كما أصبحت تتلقف كل ما يؤلف فكان من نتاج ذلك هذا الكم الهائل من الكتب المنسوخة أو قُل المخطوطة على امتداد العالم العربي والإسلامي ويكفي أن تلقي بنظرك على هذه المساحة الممتدة من طنجة غربا إلى جاكارتا شرقا مرورا بأقطار شاسعة دخلها الإسلام وصاحبتها القراءة والكتابة والتأليف، الأمر الذي خلف معه إرثا هائلا من المخطوطات لا يحصى عده في زمننا هذا، فضلا عما تركه الأوائل، ذلك الإرث الذي تعاقبت عليه نكبات فمنه من أتلفته سنابك خيل التتار حال غزوها لبلاد الخلافة بغداد وإسقاطها عام (656هـ/1258م) وما وقع لها من نهب وسلب ورمي بالنهر وما بقي منه أتت عليه أحوال شتى من تلف أو حرق من طرف الأعداء وما قيل عن بغداد يقال عن الأندلس وما بقي صار معرضا لعوادي الزمن وعوامل الطبيعة كالحرارة والرطوبة أو عرضة للأرضة أو غيرها أو ما إلى ذلك من أسباب التلف أو الإهمال بسبب انعدام الرعاية الكافية من بعض الأسر التي لا زالت تحتفظ في مكتباتها الخاصة، بكثير من المخطوطات تنعدم فيها الوسائل التي تقيها من الضياع ومع هذا نجد بعضها -أي الأسر- ترفض حتى مجرد الاطلاع عليها أو فهرستها أو تحقيقها فضلا عن إهدائها للمكتبات العامة ليستفيد منها أهل العلم، لاعتقادهم أنها تركة مقدسة ولا يمكن الاطلاع عليها والتقرب منها وهكذا يقضي عليها عامل الزمن بما

فيه من آلام ومحن وهناك من المخطوطات وهي كثيرة في مختلف العلوم والفنون تزخر بها مكتبات أوربا حولت زمن إحتلاله لأراضينا وهي تقبع الآن في مكتباته ولاسيما الغرب كفرنسا وانجلترا وايطاليا والنمسا وأمريكا وهولندا وغيرها من بلاد الغرب التي تحوي مكتباتها في المجموع على الآلاف إن لم نقل عشرات الآلاف من المخطوطات دون تحقيق يذكر اللهم إلا ما كان من طرف بعض المستشرقين ومنها من لم يحقق لحد هذه الساعة والأمر نفسه يقال عن بلاد فارس والهند والسند وجنوب روسيا حيث الجمهوريات الإسلامية التي كانت تابعة للاتحاد السوفييتي -سابقا- سابقا هذه البلدان التي شهدت ازدهارا كبيرا في قرون خلت وما ظهر فيها من علماء ومخترعون تعدت شهرتهم الآفاق من أمثال البخاري[4] والبتاني[5] والفارابي[6] وابن سينا[7] والرازي[8] وغيرهم الكثير كل ذلك الإرث من المخطوطات والكتب استولى عليه الاتحاد السوفيتي سابقا في غياب تام للبلدان العربية والإسلامية التي كانت ترزح تحت نير الاستعمار الفرنسي والانجليزي حيث أودعها مكتباته وهي تمثل الكم الكثير بالمقارنة مع ما أنتجه العالم العربي من مخطوطات وهي الآن بهذا الحال حبيسة أدراج تنتظر من ينزع عنها غبار تلك السنين الخوالي، إن لم نقل القرون ويقوم بإظهارها للوجود،

ما ذا تعني كلمة مخطوط:

هذا وعندما نتحدث عن المخطوط فإننا نقصد به ذلك المؤلف أو الكتاب الذي كتب بخط اليد ولازال لم يعرف النور إما تحقيقا أو طباعة، وقد صار له مصطلحا يعرف به حيث يعد "لفظ المخطوط" من المصطلحات المستحدثة في الأدبيات العربية الدارجة،نظرا لارتباطه بمقابله المطبوع[9].

والتحقيق لغة: مصدر من الفعل (حقق)، والثلاثي (حق)، يقال: أحققت الأمر إحقاقا، إذا أحكمته وصححته، ينظر التهذيب للأزهري مادة حقق، وحققت الأمر، وأحققته: أي كنت على يقين منه[10].

من المخطوط إلى المطبوع:

وللحديث عن المخطوطات -كما أسلفنا القول- يتبادر إلى الذهن ذلك التراث الضخم من المؤلفات العلمية في مختلف العلوم سواء كانت في الدين أوفي اللغة أو

الطب أو الفلك وغيرها من العلوم التي كانت رائجة عبر هذه العصور المتعاقبة والمخطوط هو ما نسخ قبل العام 1900م /1317هـ وبعد هذا التاريخ يسمى مطبوعا ولما حلت الطباعة محل الوراقة.انتهى عهد النساخ للمخطوطات لكن السؤال الذي يمكن طرحه متى كان ظهور الطباعة في البلدان العربية؟

إذا كانت المطبعة قد اخترعت أولا في أوربا[11] فإن من البلدان العربية التي عرفتها هي مصر.

ظهور الطباعة:

وقد كانت البداية مطبعة الحملة الفرنسية التي أحضرها نابليون معه،في غزوه المقهور لمصر سنة 1798م، لطبع المنشورات والأوامر باللغة العربية، وكانت هذه المطبعة تعمل وهي على السفينة في عرض البحر.وحينما اقتحمت هذه الحملة ثغر الإسكندرية، قام رجالها بتوزيع المنشورات السياسية التي أعدوها في البحر، وأطلق على هذه المطبعة اسم المطبعة الأهلية[12]. ومرت الأيام وجاء محمد علي باشا وأسس على أنقاض المطبعة الأهلية مطبعة تحمل الاسم نفسه سنة1821 ثم نقلت إلى بولاق على ضفاف النيل فعرفت بهذا الاسم[13].

وأقدمت مطبعة بولاق على طبع أمهات الكتب الدينية واللغوية حيث أقدمت على طبع الموسوعات الضخمة أمثال لسان العرب لابن منظور وتفسير الطبري وفتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني والكتاب لسيبويه[14].

كما ظهرت مطابع أخرى في أرجاء القاهرة ومصر بل والبلدان العربية الأخرى مثل العراق وسوريا ولبنان وغيرها من الأقطار العربية. كانت هذه المطابع وخاصة المصرية منها قد غطت شريحة من المجتمع المتعطش للمعرفة وصاحب والمحققين استطاعوا أن يسدوا فراغا كان في الساحة الثقافية العربية، ومن هنا برز جيل من المثقفين والمهتمين بشأن التراث وتحقيقه وقد أنشئت لهذا الغرض هيئات وجمعيات تعنى بتحقيقه وفهرسته وطباعته كجمعية إحياء التراث وغيرها. وهناك من يرى أن التحقيق قديم ظهر في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم حين أشار على المسلمين ألا يكتبوا عنه شيئا سوى القرآن الكريم[15].

مهنة التحقيق وأشهر المحققين:

ومن أشهر المحققين الذين تأسس على أيديهم هذا الفن المستشرق الألماني "براجستراسر"[16] الذي ألف "أصول نقد النصوص ونشر الكتب" وكانت عبارة عن محاضرات ألقاها على طلبة الماجستير بقسم اللغة العربية في كلية الآداب بجامعة القاهرة سنة1931م ثم قام بنشرها تلميذه د. محمد البكري بالقاهرة سنة 1969م[17]. ثم تلاه بعد ذلك الأستاذ عبد السلام محمد هارون بكتاب آخر "تحقيق النصوص ونشرها" وهو أول كتاب يظهر مطبوعا باللغة العربية في هذا الفن وقد أخرجت أولى طبعاته سنة 1954 بالقاهرة[18].

واتسعت دائرة المحققين والمؤلفين في هذا الفن حيث شملت فيما بعد غفير من المهتمين بهذا الفن، ولقد كان وجود الألماني براجستراسر في جامعة القاهرة من المحاضرات التي هزت الجميع في كيفية التعامل مع التراث وتحقيقه وهذا هو الدور الذي قام به المستشرقون[19] في تناول تراثنا وتحقيقه والعمل على بعثه من جديد ويكفي أن هناك كما هائلا من تراثنا قام بتحقيقه مستشرقون نذكر من جملتهم غوستاف يان "الألماني" الذي نشر شرح المفصل لابن يعيش، في ليبزغ سنة 1882م وكان ضليعا في النحو العربي بدرجة مكنته من ترجمة كتاب سيبويه إلى الألمانية بترجمة دقيقة نشرت في برلين عام 1895-1900م وهارتقيج ديرنبورج "الفرنسي" الذي نشر كتاب سيبويه في باريس في مجلدين ظهر أولهما سنة 1881م والثاني سنة 1889م، وفستنفلد[20] "الألماني" الذي نشر سيرة ابن هشام في ليبزغ سنة 1899م ووليام رايت[21] "الإنجليزي" الذي نشر "الكامل" للمبرد نشرة متقنة مزودة بالفهارس الدقيقة والمستفيضة، وهو شاب في سن الرابعة والعشرين وطبعه في ليبزغ سنة 1864م[22].

ضف إلى هذا الكثير ممن أسهم في تحقيق ونشر الترلث العربي في مختلف الفنون أمثال "بيفان"[23] الهولندي الذي نشر نقائض الفرزدق وجرير و"ورودلف جاير"[24] الألماني الذي نشر ديوان الأعشى الكبير والأعشْين الآخرين في كتاب سماه "الصبح المنير في شعر أبي بصير" وقد استخدم في جمع أشعار هؤلاء الشعراء أكثر من خمسمائة مصدر عربي مطبوع ومخطوط وطبعه في لندن سنة 1928م وقد

تأثر بهؤلاء المستشرقين بعض رجال الرعيل الأول من المحققين العرب من أمثال العلامة المرحوم أحمد زكي باشا الذي حقق كتابي "أنساب الخيل" و "الأصنام" لابن الكلبي وطبعهما بدار الكتب بالقاهرة سنة1914م وكانا من أوائل الكتب التي كتب عليها كلمة "تحقيق" لأول مرة[25].

وإن كان البعض منهم قد أساء إلى قيمنا الحضارية وسمح لنفسه بتحقيق بعض الكتب تحقيقا مشوبا بالنظرة العدائية لقيمنا الحضارية والإنسانية والدينية بالأخص ومن هنا فإن تناول المستشرقين لتراثنا بالتحقيق والنشر والطبع لا يمكن حمله دائما على العداء لهذا التراث بل هناك المنصفون ممن ذكرنا والمتحاملون ممن لم نذكر.

وإن كانت هناك كلمة تقال فإن للباحثين والدارسين مراجعة هذه المؤلفات والردّ على أصحابها ردا علميا يناسب المقام.

الهوامش

(1) ينظر: المدخل الى مصادر اللغة العربية، الدكتور سعيد حسن بحراوي، مؤسسة المختار، للنشر والتوزيع، القاهرة، ط3، 1428هـ-2008م، ص9 .

(2) نفسه.

(3) نفسه، ص 14.

(4) البخاري هو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة (ت 256هـ) ينظر: الأعلام لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، 2002، ص 34/6.

(5) أبو عبد الله محمد بن جابر له أعمال وأرصاد وبراعة (ت 317هـ). ينظر: سير أعلام النبلاء، ص 519/14.

(6) أبو نصر محمد بن محمد بن طلخان بن أوزلغ (ت399هـ). ينظر: نفسه، ص 416/15.

(7) الحسين بن عبد الله الحكيم المشهور فليسوف وطبيب (ت 428هـ). ينظر: وفيات الأعيان لأحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 2/157-162.

(8) محمد بن عمر بن الحسين أبو عبد الله (ت 606هـ). ينظر: طبقات المفسرين لأحمد بن محمد الأدنروي، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي، نشر مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة، ط1، 1997، ص 214/1.

(9) ينظر: المخطوطات الدمشقية، المخطوط العربي منذ النشأة حتى انتشاره في بلاد الشام – دراسة ومعجم-، إياد خالد الطباع، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، ط1، 2009، ص11.

(10) معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر طبعة 1979، 19/2

(11) كان ظهور المطبعة سنة 1436 م، أو 1437 على يد يوهان جونتبرج، ينظر: مدخل إلى تاريخ نشر التراث، الدكتور محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1984، ص 31.

(12) نفسه.

(13) نفسه، ص 33.

(14) نفسه، ص 36.

(15) ينظر: تحقيق المخطوطات والنصوص ودراستها (المناهج والقواعد والإجراءات)، الدكتور هادي نهر، دار الأمل للنشر والتوزيع إربد، الأردن، ط1، 1426هـ-2005م، ص12.

(16) جوتهلف برك شتريزر (1886-1933) GOTTHELF BERGSTRASER مستشرق ألماني تعلم في جامعة ليبزغ وأخذ العربية عن أوغست فيشر، زار الشرق والأناظول وسوريا وفلسطين له مؤلفات في اللغة العربية. ينظر: الأعلام، 144/2.

(17) ينظر: مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين، الدكتور رمضان عبد التواب، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1406هـ-1985م، ص 59.

(18) نفسه.

(19) (الاستشراق): « أسلوب في الفكر قائم على تمييز بين الشرق في معظم الأحيان والغرب » - إدوارد سعيد، ترجمه: كمال أبو ديب، ص 38، الطبعة الثانية 1984م، مؤسسة الأبحاث العربية (بيروت). -تعريف محمود زقزوق الذي عرفه بأنه: «الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامي في لغاته وآدابه وتاريخه وعقائده وتشريعاته وحضارته بوجه عام». (الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري). -د. محمود حمدي زقزوق، (سلسلة كتاب الأمة- 5)، مؤسسة الرسالة، بيروت 1407هـ / 1987م . ولمزيد من التعريفات انظر: أضواء على الاستشراق والمستشرقين). - د. محمد أحمد دياب، ص ص 10 - 11، دار المنار القاهرة، 1410هـ 1989م، و(الاستشراق في الأدبيات العربية). - د. علي بن إبراهيم النملة، ص ص 7 1 - 18. - مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض 1414هـ 1993 م .

ينظر: الشيخ محمد بن عبد الوهاب حياته ودعوته في الرؤية الاستشراقية

المؤلف : ناصر بن إبراهيم بن عبد الله التويم

الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - مركز البحوث والدراسات الإسلامية

ط1/ 1423هـ - 2002م،14/1.

وقد ظهر الاستشراق بمفهومه العلمي الدقيق في منتصف القرن السابع عشر الميلادي وكان ظهوره أول الأمر في انكلترا عام 1770م تقريبا، ومن ثم في فرنسا عام 1799م وجاء موازيا لعصر النهضة الأوربية وانتهى بوصفه مصطلحا عام1973م في المؤتمر الدولي التاسع والعشرين للمستشرقين، واستبدل مفهوم الاستشراق بمفهوم (دراسة العلوم الإنسانية في آسيا وشمال إفريقيا) أما بدايات

الاستشراق فأقدم من ذلك إذ تعود إلى عام(999م) حيث تعلم (البابا سلفستر الثاني) دروسا في الفلك والرياضيات على يد علماء عرب، ويقال: إن ملك (ليون) (سانشيه) في (القرن العاشر الميلادي) تعلم العربية والطب على يد علماء قرطبة، وحث البابوات الرهبان الذاهبين إلى الشرق للتبشير على تعلم العربية، وتقرر في مجمع فيينا الذي عقد عام (1311م) تأسيس دروس في العربية والعبرية والسريانية في كل من باريس، وبريطانيا، وإسبانيا، وإيطاليا. وقد أنشئت أول مطبعة باللغة العربية في إيطاليا (عام 1514م) طبع فيها القرآن الكريم، وفي عام (1584م) أسس البابا (كريكيوس) في روما أول مدرسة لتدريس العربية للمارونيين، وتخرج منهم ثلاثة: شمعان السمعاني، وإبراهيم الحاقلاني، وكان أول كرسي للغة العربية قد أسس في فرنسا سنة (1539م) برئاسة (بوستل) وأول كرسي في هولندا (ليدن) عام (1613م) ومن ثم في كمبرج عام (1732م)، وفي أكسفورد عام (1636م)، ووضع (أربانيوس) أول معجم عربي ـ لاتيني للعربية الفصحى أوائل القرن الثامن عشر وكتب (بوستل) كتابا في قواعد اللغة، وألف الفرنسي (سلفستر دوساسيه) كتابا في النحو العربي، و(منتخب الأدب العربي)، وألف الألماني (فلايشر) كتابه (مقالات في علم اللغة العربية). وغير ذلك ينظر: تحقيق المخطوطات والنصوص ودراستها، د/ هادي نهر، ص79.

([20]) فرديناند فوستفيلد WUSTENFELD (1808-1899) أحد تلاميذ اللغوي الألماني إيفالد ممن احتل منزلة مشرفة حيث أصدر عدد كبير من المطبوعات المهمة. ينظر: تاريخ حركة الاستشراق، ص 192.

([21]) وليام رايت WILLIAM WRIGHT (1830-1889) مؤسس مدرسة كامبرج، درس اللغة العربية في جامعة (سانت أندرو) أصدر في عام 1852 كتاب رحلة ابن جبير عن النسخة الوحيدة. ينظر المصدر السابق، ص 213.

([22]) ينظر: مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين، الدكتور رمضان عبد التواب، ص 57.

([23]) بيفان أنتوني آشلي بيفان ANTONY ASHLEY BEVAN (1859-1934) مستشرق إنجليزي من تلاميذ وليام رايت في العربية.. ينظر: الأعلام 34/2.

([24]) رودلف جاير RUDOLF GEYER (1861-1929) مستشرق نمساوي. ينظر: تاريخ حركة الاستشراق، يوهان فوك تعريب عمر لطفي العالم، دار الكتب الوطنية، بن غازي، ليبيا، ط2، 2001، ص 269.

([25]) نفسه، ص 58.

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊